فتابع عبد المعطي وصوته مشبع بالمرارة:

ـ بينما أنا أدير رأسي نحوها كانت دفقة شديدة من رائحة عطرها قد نفذت إلى أنفي. وخلال ثوان قليلة حصل كلّ شيء. فبتأثير الرّائحة أغمضت عينيّ وتدافعتْ سريعاً ورغماً عنّي الصّور والأفكار... زوجتي الّتي لم أرها منذ سنة ونصف.. رغبتها بأن أرسل قنّينة عطر لها حينما أعود للزّيارة... قطعة الأرض الّتي أحلم بشرائها... أشياء كثيرة بدت لي كأنّها رؤيا، ولكنّها رؤيا تظلم ولا تنير...

قال كل ذلك بأسى بالغ وبصوت متهدّج مقهور. ثمّ صمت.

ربّت صديقه على كتفه مواسياً. ثمّ جعلا يحدّقان أمامهما بذهول فلا يريان إلاّ فضاءً معتماً داكناً.. بانتظار موعد إقلاع الطّائرة.

الرّصيفة ـ الأردن

الزّمن

عبد السلام السيدي

اقتعد كرسيّاً من الخيزران في حديقة بيته الصّغير.. تابع ببصره ثلّة من الأطفال الهنود، وهم يلعبون الكرة. كان يتصفّح كتاباً.. اعتاد هذه الجلسة في الأيّام الصّائفة، حين يشتدّ الحرّ في الدّاخل، يوزّع نظراته بين صفحات الكتاب ورؤية الأطفال. وتأمّل أزهار عباد الشّمس الصّفراء، وهي تلاحق الجرم السّماوي، المتلفّع بأسمال الشّفق.. تهتزّ شجيرات الحديقة.. يهتزّ قلبه، ويتساقط الزّمن الميّت في داخله، ركاماً من رماد بارد.. بشرود ينكفئ على عالمه الدّاخلي حيث بقايا ساعات محطّمة، وأشياء عتيقة باهتة، جرفها تيّار الزّمن إلى هاوية سحيقة غارقة في الظّلام.. طفا مرّة أخرى إلى السّطح، حدث هذا بَغْتَةً. الكرة الّتي قذف بها الصّبية، هوت وسط الحديقة، جذبته بعنف، كغوّاص انتشله رفاقه من أعماق سحيقة، بينما كان فرحاً بجنى المرجان والمحار وأشياء الأعماق الجميلة.. انحنى أحد الصّبية محيياً، واضعاً راحتيه المطبقتين أمام صدره قائلاً بلغة انجليزيّة: أعطني الكرة يا عمّي..

ثنى الصّفحة الّتي توقّف عندها، ونهض بتثاقل، تخطّى السّياج، ودلف للحديقة. انحنى يرفع الكرة، ثم يعود إلى مجلسه..

رآهم يقفون إزاءه ينظرون إليه بخجل..

قال، بالإنجليزيّة، مخاطباً أحدهم: «سمراد» لا تجئ بالأولاد للّعب قرب الحديقة. ها أنتم تحطّمون الأشجار الجميلة.. ها.. سأخبر والده..

ردّ الصّبي الهندي الّذي يلفّ رأسه بعمامة زرقاء، وهو يبتسم بمرح:

ـ حسناً، سنذهب للعب بعيداً عن الحديقة..

تراكضوا وهم يلوّحون بأيديهم وأماراتُ الفرح بادية على وجوههم السّمراء..

عاد يقلّب بصره في شجيرات حديقته. رأى شجيرة عبّاد الشّمس، محطّمة، منذ دقائق كانت مزدهرة، بأزهارها الصّفراء الجميلة، وها هي الآن في زمن جديد. ماضيها ذكرى، كأيّامه الفائتة. هو الآخر يصير إنساناً جديداً، الزّمن في داخله وحوله ينسحق، ويتلاشى في الهاوية.. هزّ رأسه محاولاً طرد تلك الهواجس الّتي تثير فيه الشّجن. مدّ بصره صوب شجرة خرّوب منتصبة عند بركة صنعتها مياه المجارير. رأى قطّاً أسود يلمّظ، قذفه بحجر، كاد يصطدم برأسه. هرب الحيوان بعيداً، ليختفي بين الأعشاب المتماوجة..

رأى عشّاً يسقط من شجرة الخرّوب ذات الأوراق المغبرّة. طفا العشّ فوق صفحة المياه الكدرة. طفق طائر صغير يغطّي جسده الزّغب، يضرب برجليه وجناحيه، محاولاً الخلاص، بضربات واهنة. تأمّله بأسى مشوب بالشّفقة.. انتبه الصّبية.. توقّفوا عن اللّعب، رأوه يخوض في مياه البركة، فركضوا إليه، توقّفوا قبالته. قال أحدهم بفصول وهو يزرع نظراته في وجه الرّجل الّذي كان يخوض المياه، مشمّراً عن ساقيْ بنطاله:

ـ ماذا تفعل يا عمّي؟!

التفت إليه، قائلاً في نفسه. لم لا أدعو أحدهم يحوص المياه، إنّهم أكثر نشاطاً، وهذه المغامرة تجلب لهم الفرحة..

ـ من يقدر على انتشال ذلك الطّائر؟

ارتفعت الأصوات الصّاخبة: أنا.. أنا..

أشار بإصبعه إلى أطولهم قامة وكان فتى حاسر الرأس..

ـ هل تستطيع ولوج البركة؟

ـ أجل.. سأجيء بالطّائر الصّغير..

انحنى يشمّر ساقيْ بنطاله، قلّب الصّغير بصره في اتّجاه البركة.. رأى بقعةً سوداء.. مدّ الرّجل إصبعه باتّجاه البركة..

انظر إنّه هناك.. هيّا.. اذهب لانتشاله..

تراجع الرّجل، ليقف على حافة البركة، وحوله الصّبية، يرقبون الصّبي الطّويل وهو يحوص المياه الّتي غطّت ركبتيه.. امتدّت يده ترفع العشّ، نظر في تجويفه، رأى مهداً من الرّيش والقشّ، بيضاً مهشّما وزراقاً.. أخذه ومضى صوب البقعة السّوداء، رآه بجرمه الصّغير

يرتعش من برودة المياه، ومنقاره الأصفر فاغر، وعيناه مغمضتان. تأمّله بفرح، ثمّ رفعه بيده ليضعه وسط العشّ..

غادر المستنقع إلى أترابه الصّغار وذلك الرّجل الّذي كلّفه بهذه المهمّة اليسيرة.. ناوله للرّجل، الّذي أخذ يلقي عليه نظرة متفحّصة.. قلّبه بين كفّيه، ثمّ أعاده إلى مهده المبطّن بالرّيش..

قال الصّبي الهندي «سمراد» الّذي يلفّ رأسه بعمامة زرقاء:

ـ سأحضر له بذوراً، لإطعامه، إنّه جائع يا سيّدي..

قال صبي آخر بدين حاسر الرأس: إنه متبرّد، علينا بتدفئته..

قال الرّجل بلهجة آمرة: دعوه لي، سأهتم به، وغداً عندما يكبر سأدعوكم لمشاهدته وهو يغنّي في القفص..

دخل البيت، حيث قام بتجفيف العصفور، ثمّ استودعه قفصاً به مجثم، وإناء بلاستيكي صغير مليء بالماء، وثمّة بذور تغطّي الأرضيّة، وبقايا زراق قديم.. خرج ليجلس على كرسيه، يتأمّل أزهار حديقته والبيوت الممتدّة أمامه وقد أخذت تغوص في العتمة.. ألقى نظره على ساعة معصمه.. فكّر في الزّمن الّذي انقضى، لقد صارت السّاعات الميّتة ركاماً.. رماداً بارداً في موقد الشّتاء.. ذكرى باهتة.. صوراً لأشياء حميمة غارقة في عتمة الدّهاليز.. الشّمس الغاربة تودّع أزهاره الكئيبة.. اختفى الأطفال في جحورهم، والطّائر الّذي انتشله من الغرق قابع في قفصه المعدني وفي مخيّلته عشّ وشجرة، ورفّ من العصافير.. ألقى نظرة على ساعة معصمه، رأى عقاربها تلتهم الزّمن الّذي سرى في نسغ الأشجار وفي دماء الكائنات وتبدّل الفصول.. صدى عقارب السّاعة يتوافق مع وجيب قلبه.. رأى اللّيل ينشر أسماله السّود، فتختفي البيوت والأشجار تحت ظلال ثقيلة. لقد أزف وقت الهجوع، سيختفي في بيته هرباً من الصّقيع والظّلام المعادي.. سحب كرسيّه إلى الدّاخل، وأوصد الباب الخارجي بالمفتاح. وفي غرفة النّوم، ارتدى منامته واستلقى على السّرير المعدني، تلفّع بغطاء ثقيل، وأغمض عينيه. أزاح اللّحاف وانتصب واقفاً، قال في نفسه: لقد نسيت طعام العشاء، عليّ بقلي البيض، عشاء خفيف مكوّن من طبق بيض مقلي. وشرب كوباً من الحليب المحلّى بالسكّر..

في المطبخ شرع يجهّز عشاءه.. وضع البيض المقلي في طبق بلاستيكي ثمّ أضاف إليه حبّات من الزّيتون وكوب حليب من العلبة الورقيّة. وضع كلّ هذه الأشياء على الخوان وطفق يلتهم عشاءه. غسل يديه بالماء ومسحوق الصّابون، ثم أخذ يغلي الشّاي في إبريق معدني، ملأ كأساً صغيرة بالشّاي السّاخن، وشرع يترشّفه على مهل.. غسل الطّبق وكاس الشّاي وكوب الحليب، رتّب أدوات المطبخ، ثمّ دخل الحمّام..

تحت المسحاح انتصب بجسده العاري، وبنطاله القصير. اندلق الماء البارد على جسده فشعر بالنّشاط. نشّف جسده بالفوطة وارتدى منامته، وآطفأ ضوء الحمّام. ارتمى فوق السّرير، وأخلد إلى نوم عميق.

صورة العشّ، والطّائر الصّغير، والبركة القذرة الحافلة بالبعوض، مازالت مطبوعة في ذاكرته.. في هذه البقعة اللّعينة من العالم، تمرّ الأيّام رتيبة مقرفة.. يفترسنا الزّمن بأنيابه الضّارية، ونحن نضحك ببلاهة، شمس الصّيف وصقيع الشّتاء والوجوه النكدة. ينتابك العطش فتفتح فاك. تحت الصّنبور، تشرب مياهاً مالحة. طعم لعين غير مستساغ. تصدمك مياه البرك الحافلة بالذّباب والبعّوض، وتداهم خياشيمك روائح عطنة. قال يحدّث نفسه وهو يكرّ عائداً من محطة الكهرباء المقامة هناك عند البحر يمتطي درّاجته الهوائيّة. ها هي المدينة الدّارسة، تطلّ بأنصابها الحجريّة، وأعمدتها الاسطوانيّة، مدينة قديمة زحفت عليها الأمواج الهادرة. كانت آلة التّصوير معلّقة على كتفه، لا تفارقه حتّى ينام، هواية آسرة، أحبّها، دائماً يلتقط الصّور الّتي تروق له. عشقَ التّصوير الفوتغرافي والرّسم وقراءة القصص، حتّى ذبلت عيناه وغدا إنساناً حالماً يجنح إلى الخيال. قال في نفسه وهو يقفز من فوق درّاجته: لم لا أستريح تحت جدران هذه الآثار، وثمّة مناظر جميلة، عليّ بالتقاطها، فقد لا يتسنّى لي رؤيتها مرّة أخرى.. كما سأبعث ببعض هذه المناظر إلى الأصدقاء في بلدتي القابعة في أطراف الصّحراء.. حيث الرّمال والغزلان والطّيور الجارحة والسّهوب الممتدة على مدى البصر.. لا أترك هذه الإشراقات تفلت من بين يديّ.

انحدر من مزاج ترابي يشق أكوام الحجارة، أفضى به إلى الشّاطئ الرّملي المقفر. لم ير سوى الأمواج المصطفقة على كتل من الصّخور السّوداء، وثمّة طيور مائيّة جاثمة في صمت. فاستشعر الوحدة، والخوف. أسند درّاجته على صخرة ومضى فوق الرّمال، وآلة التّصوير تتأرجح متدلّية من كتفه، أخذ يلتقط صوراً لتلك الطّيور الجاثمة على الكتل الصخريّة.. قال في نفسه، وهو ينطلق بدرّاجته بمحاذاة الشّاطئ: هذه المياه المالحة، المصطفقة منذ الأزل ماهي إلاّ عقارب ساعة كونيّة، أو صفحات كتاب تعبث بها الرّيح.. تتلاشى الأشياء القديمة تحت الرّكام، وقد تعود فتطفو على السّطح مع تلك الإشراقات الآسرة.. كانت النّسائم المحمّلة بأريج البحر وشذى أزهار الحقول القريبة، تملأ كيانه، فيداهمه فرح طفولي لا يعرف مصدره فتتراءى له كلّ الأشياء المحيطة به، تندمج معه في ألفة حميمة.. الأمواج تصطخب طاوية صفحات كتابها، وهذه الشّمس في طريقها إلى الأفول، لتغوص في الأعماق السّحيقة. لكن عقارب ساعة معصمه مازالت تركض.. كطرفيْ مقصّ، يقرض أسمالاً بالية..

نهض بتثاقل من فوق الحجر الّذي اقتعده.. قفز فوق درّاجته، وانحدر عبر الطّريق المفضي إلى الشّارع العمومي، متوجّهاً صوب بيته الصّغير القابع في حي العمّال.. تابع ببصره الأشياء الّتي مرّ بها.. المدينة الدّارسة، بأنصابها الحجريّة وصخورها المغسولة بأمواج البحر، رأى أشجار النّخيل الباسقة، وأشجاراً أخرى لا يعرف أسماءها. كانت عيناه زائغتين وشعره الكثيف، بعثرت خصلاته السّوداء النّسائم الباردة.

ظلّ يقود درّاجته، صوب حيّ العمّال، حيث جيرانه الهنود.. حلّ الظّلام فأضاء فانوس درّاجته، وشرع يصفّر، وفي الوقت نفسه يودّ عند وصوله إلى شقّته أن يسجّل انطباعاته في رسوم جميلة. لِمَ لا يرسم لوحات تعبّر عن مشاهداته؟. غداً سيبتاع علبة ألوان زيتيّة وفرشاة وورقاً للرّسم.. لم لا أعود إلى ممارسة هوايتي القديمة، الّتي هجرتها منذ التحاقي بالعمل في هذه المحطّة؟. كان يفكّر في رسم لوحات، عن كل ما رآه.. سيرسم بحراً بأمواجه وصخوره المغسولة بالرذاذ.. سيرسم شجرة خرّوب وبركة، وعشّ عصافير، ويرسم أطفالاً يلعبون، وآثاراً بأعمدتها الرّخاميّة وتماثيلها المنزوعة الرؤوس.. في ذلك اليوم ولج بيته تحت جُنح الظّلام، كان مرهقاً، لم يتناول عشاءه، بل ارتدى منامته، واندسّ في الفراش.. وأخلد إلى نوم عميق..

طرابلس (الجماهيريّة)

نافرة وليست بيضاء ولا حزينة

أحمد خريس

ملقىً كان في زاوية الشّرفة، رأسه في انحناءة مستسلمة ملتمّة، معفّرٌ برمل الحائط المتآكل. منقاره أصفر ذابلٌ، والجسم منتهك، رطباً لمّا يزل. الدّم السّائل على البلاط كثيف قانٍ؛ وقد بدأ يجفّ تماماً. الرّيش ـ حين تلمّسته ـ محترق أسفل البطن الهضيم ومختلط بالحمرة المتجلّطة الغائرة. رفعته بيدي، العينان تبوحان ـ في التماع الضّوء ـ بشيءٍ لزج وعميق رغم البرودة وهمود الجسد كأنّما تريانني، وأنا واقف بالمنامة، سروالي متهدّل قليلاً، حافٍ، نصف مشدوه، وحولي أصص الزّرع الفخّاريّة مملوءة بالتّراب المبلّل، بعضها مشقّق فيه سطحُ التّراب، أو نابت في غير اتّساق، رقيق السّاق وله ورقتان وحيدتان زاهيتا الاخضرار. أختي الصّغيرة ـ الّتي تكبرني بسبع سنين ـ تناديني من المطبخ، عيناها الحائرتان دوماً سوداوان بغير هوادة. الشّعر الأسود ـ أيضاً ـ لامع وضافٍ (تكره أن يلمسه أحد وكأنّه مقدّس) وجنتاها مرتفعتان بامتلاءٍ أليف، والوجه معجون ببياض لم يتوفّر لباقي إخوتي، تُطلّ من خلف الباب: «مسكتك... إيش بتعمل؟» بهمهمة ونِصْف ضحكة، وبجدٍّ مصطنع: «تعال يلّه... الأكل محطوط». عيناي متعلّقتان بالفضاء، بسرب طيور البحر المارق، بالأزرق المهتاج بحمرة ما قبل الغروب. أنحني على الدرابزين، وأنظر إلى أسفل. الحوش ببلاطه الحائل اللّون رماديّ قليلاً بانمحاء الضّوء الواصل إليه، معتم في الزّوايا. أُكرِّر النّظر إلى أعلى مرتكناً على قضيب الدرابزين الأسود. ترمق عيناي في صعودهما ألواح «الزّينكو» تلمع فيما تبقّى من ضوء النّهار. والنّخيل في الوراء أخضر كابٍ (لكم سأتخيّل أنّي أصعده مرّة أخرى، وأرتمي على الرّمل الطّريّ تحته وأرى الشّمس تخالسني من بين سعفاته). في الدّاخل... المطبخ معتم قليلاً، الكؤوس والأواني مجلوّة ويقطر منها الماء. رائحة الأكل المنبعثة من الفرن الكهربائي مختلطة برائحة العجين المختمر الّذي تُرك ليرتاح وقتاً قبل خبيزه. النمليّة المسودّة الوطيئة ذات الضلفتين الّتي أحتفظ فيها بخيوط الصّيد والسّنانير والأثقال الرّصاصيّة... (سأذكر حبّي الشّديد للصّيد، توقي الأزليّ للبحر، شوقي لحجارته الخضراء بطحلبها الوفير، رائحته الّتي لا تحبّها أمّي في المساءات الحارّة الرّطيبة). أخي الكبير في جلسته اليوميّة بعد نهار العمل الشاقّ والطّويل، يتغدّى ويتعشّى معاً، وربّما كان التأخّر البسيط في تسخين الطّعام سبباً كافياً لينام في مكانه خاوي المعدة. أنا الوحيد المدعوّ إلى مشاركته، لأنّي الصّغير ولأنّي ـ كما قالت أمّي ـ مشغول طول النّهار عن الأكل. في الغرفة المجاورة ـ ودون أن أذهب لأرى ـ أعرف أنّ أخي الأوسط لابدّ جالس على كرسيّه الأثير في الزّاوية. السّتائر مسدلة عن عمد، والضّوء الشّاحب القليل يتسرّب من فرجة الباب. لا يضيء النيون، أو يقلب الأسطوانة الّتي هدأت، أو يستطيع قراءة المزيد من الصّفحة المفتوحة في كتابه، أخي الأوسط الّذي عاد من بلاد الشّمال منذ مدّة قريبة جالس يفكّر ويدخّن ويشرب قهوته باردة (سيقول لي بعد سنين كم كان حزيناً في جلسته تلك) أمّي تناديه بعد أن خلعتْ نظّاراتها الطّبيّة المقرّبة، تترك غزل الصوف قليلاً. تحشره بجانبها على الكنبة وسنّارتا الغزل مشبوكتان به... تطلب منّي أن أناديه. أضيء نور الحجرة، فيصرّ عينيه، وفوقه هالة من الدّخان لا تبرح، أقول له: «إمّك بدها إياك» فيردُّ مبتسماً: «إمَّك لحالك». يصمت قليلاً ثمّ يقول: «طيّب... قلْ لها أنا جاي». لحيته نابتة في غير انتظام، وشفتاه مزرقّتان من أثر التّدخين. بجانبه على الأرض عدد كبير من الاسطوانات مركونة بالطّول على الحائط، اشترى غالبيّتها أيّام دراسته الّتي لم تتمّ. تشدهني صور العازفين عليها. سودٌ منتفخو الأشداق، في أفواههم آلات نفخ نحاسيّة، وأصابعهم ملأى بالخواتم، أحدهم أضحكتني صورته كثيراً أوّل مرّة، آلته الغريبة بوقها يرتفع لأعلى وكأنّما هو مطعوج في حادث، وفمه المنتفخ يتّسع لي كاملاً. سألت أنني عن اسمه فقال لي: ولم أحفظه... أظنّه قال كالسبي (سأعرف ـ فيما بعد ـ أن اسمه ديزي جيلسبي، وأنّ أخي يحبّه كثيراً هو وباركر وكولترايْن، وأنّهم جميعاً عازفو جاز متميّزون أحببتهم وسأحبّهم وأخي حتّى آخر العمر). أبي يناديني من غرفة النّوم، وهو متمدّد